بسم الله الرحمن الرحيم

تحرير أسرى المسلمين في الأندلس

(٩٢-٦٢٠هـ = ٧١١-١٢٢٣م)

د.خالد يونس الخالدي

أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك- الجامعة الإسلامية-غزة

ملخص البحث

تناول الباحث جهود المسلمين حكاماً ومجتمعاً في تحرير أسرى الأندلس من سجون الأعداء، وذلك منذ (٩٢-٦٢٠هـ=٧١١-) وقد تبين له بعد التأمل في المعلومات التي جمعها من المصادر المشرقية والأندلسية أنهم حرصوا على تحرير أسراهم رغبة في الأجر من الله تعالى، وحباً لإخوانهم المسلمين، وشعوراً بالمسئولية تجاههم، وعملاً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، واقتداء بسير الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام، ومن سار على دربهم من الخلفاء والحكام والقادة.

وأن للأسير المسلم قيمة عالية في نظر حكام الأندلس الأقوياء، جعلتهم يخوضون الحروب من أجل تحرير أسيرة أو أسير.

وأن أعداء المسلمين أدركوا مكانة الأسير المسلم في عين حكامه، فكان بعضهم يسارع لفك الأسرى حتى قبل أن يعلم بهم المسلمون ويطالبوا بإطلاقهم.

وأن القوة العسكرية ومبادلة الأسرى بالأسرى كانت الطريقة التي يخلص بها المسلمون أسراهم في زمن القوة والجهاد، وأنهم خاضوا حروباً كثيرة

من أجل تحرير أسراهم، وأن الافتداء بالمال من قبل الحكام أو الأفراد كان الطريق إلى تخليصهم في عهود الضعف والتقاعس.

وأن كثيراً من العلماء والأثرياء الصالحين قد أسهموا في تحرير أسرى مسلمين أندلسيين من سجون الأعداء.

Abstract

The research undertakes the efforts made by Muslim rulers as well as people to liberate the prisoners of Andalucía from enemy jails from ٩٢-٦٢٠ H. After close look at the data collected from both eastern and Andalucían sources it was clear that the Muslims strived to liberate their prisoners seeking rewards from Allah, and due to their love to their Moslem brothers and the feel of responsibility towards them. They did so also to follow the example of the prophet Mohamed (PBUH), the wise caliphs, the noble companions and all who followed that example among all other caliphs, rulers and leaders.

The research shows that the strong rulers of Andalucía greatly valued the Muslim prisoners, which made them wage wars to liberate even one male or female prisoner. This made their enemies realise the value of those prisoner where in some cases they would release them before the Muslims know and demand for their release.

The research shows that during the time of Muslim strength and jihad, prisoners were released by mean of prisoner exchange due to the military might. On the other hand, at the time of weakness and setbacks ransoms paid by individuals or rulers were often paid for their release. None the less, it shows that many scholars and good wealthy men have contributed to the release of Muslim Andalucían prisoners.

المقدمة:-

المتأمل في تاريخ الدولة الإسلامية في المشرق والمغرب، منذ نشأتها في العهد النبوي وحتى سقوط الخلافة، يكتشف أن المسلمين هم أكثر الأمم اهتماماً بتحرير أسراهم، فكم من حرب خاضوها من أجل تحرير أسيرة مسلمة أو أسير، وكم من جهود ودماء وأرواح وأموال بذلوها في هذا السبيل النبيل.
والأندلس مثال واضح شهد على اهتمام المسلمين حكاماً و مجتمعاً بتحرير أسراهم من سجون الأعداء، ذلك لأن الصراع عليه مع النصارى الأسبان لم يكد يهدأ منذ أن وطئته أقدام الفاتحين المسلمين سنة(٩٢هـ= ٧١١م)، وحتى سقوطه وخروجه من أيدي المسلمين سنة (٨٩٧هـ= ١٤٩٢م).

مبررات الدراسة:

لقد أقدمت على دراسة هذا الموضوع، لأسباب عديدة أهمها:

١- ندرة الدراسات التي تناولته، إذ لم أجد حوله أية دراسة بالرغم من أهميته.

٢- تناثر المعلومات القليلة المتعلقة بتحرير الأسرى في الأندلس في المصادر، والحاجة إلى دراسة تجمعها، وتعطي صورة واضحة عن الموضوع.

٣- أن الأندلس شهدت صراعاً قوياً وطويلاً بين المسلمين وأعدائهم، في مختلف العهود، ومن المؤكد أنه أدى إلى أسرى لدى الجانبين، والحاجة إلى التعرف على موقف المسلمين حكاماً ومجتمعاً من أسراهم، في عهود القوة والضعف.

٤- تذكير الأمة اليوم حكاماً وشعوباً بقيمة الفرد المسلم في نظر القيادة والشعب، في الدولة العربية الإسلامية في العهود السابقة، فيقتدوا بتاريخهم المجيد، ويزيد اهتمامهم وتقديرهم واحترامهم للإنسان المسلم في دولهم.

٥- تحريض الحكام والشعوب المسلمة في كل مكان على القيام بواجبهم نحو أسرى المسلمين رجالاً ونساء، الذين تنتهك حرماتهم، وتمتهن كراماتهم في سجون الصهاينة والأمريكان في فلسطين والعراق وأفغانستان.

حدود الدراسة:

سوف تقتصر الدراسة على الأندلس وأسرى المسلمين فيها، ويمكن أن تتناول جهود حكام من المغرب والمشرق أسهموا في تحرير أسرى مسلمين من الأندلس، في زمن مسئوليتهم عنها كإحدى الولايات التابعة لحكمهم، أما الحدود الزمانية للدراسة فسوف تبدأ منذ فتح الأندلس سنة(٩٢هـ= ٧١١م)، وتنتهي بسقوط دولة الموحدين في الأندلس، وذلك لأن هذه المدة قد شهدت الصراع العنيف بين المسلمين والنصارى في الأندلس.

منهج الدراسة:

اتبع الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، وقد جمع المعلومات من مختلف المصادر الأندلسية والمغربية والمشرقية، وحرص على الإكثار من النصوص، لترك شهود العيان على الأحداث يعبرون بلغتهم عن مشاهداتهم، فتكون أكثر دقة، وأبلغ تأثيراً، وترجم للأعلام غير المشهورة، والتي تعين معرفتها على فهم أفضل لموضوع الدراسة، كما عرَّف بالكلمات الصعبة الواردة في نصوص الروايات والأشعار.

البحث :-

أولاً- دوافع المسلمين في الأندلس لتحرير أسراهم:

لم يتوقف الصراع بين مسلمي الأندلس والنصارى في الشمال الأسباني و دول الفرنجة، إذ ظلوا يحاولون استعادة الأندلس، على مدى القرون الثمانية التي قضاها المسلمون في شبه الجزيرة الأيبيرية، وقد نتج عن المعارك والحروب بين الجانبين في مختلف العهود، وقوع كثير من المسلمين أسرى في أيدي أعدائهم.

وقد اهتم مسلمو الأندلس على المستوى الرسمي والشعبي بتحرير أسراهم من قبضة أعدائهم اهتماماً كبيراً، وهناك أسباب عديدة من المؤكد أنها كانت وراء هذا الاهتمام، ويمكن حصرها في النقاط الآتية:-

١- ابتغاء الأجر من الله تعالى، إذ وعد النبي صلى الله عليه وسلم من حرر مسلماً من رق العبودية بالعتق من النار، حيث قال: " من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار"[١]، وأرى أن الأسر في يد العدو يشبه الرق والعبودية، إن لم يكن أشد، إذ يحجر العدو على الأسير في كل شيء، فيصبح كالعبد الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً، وقد يتعرض للعذاب والإهانة والإذلال.

٢- لأن العلاقة التي تربط بين المؤمنين هي علاقة الأخوة " إنما المؤمنون أخوة"[٢]، وواجب على الأخ أن ينصر أخاه، ولأن منزلة المسلمين عند بعضهم البعض حسب التصور الإسلامي الذي بنيت عليه عقيدتهم، كمنزلة الأعضاء في الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تألمت بسببه بقية الأعضاء، وقد استمدوا هذا التصور من قول النبي صلى الله عليه وسلم:" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا

---

[١] - البخاري، صحيح البخاري، ج٦، ص٢٤٦٩.

[٢] - الحجرات، آية:١٠.

اشتكى منه عضو تداعى لـه سـائر الجـسد بالـسهر والحمـى"[٣]، وقوله:"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً "[٤].

٣- استجابة لأمر النبي، وسيراً على هديه، إذ يقول عليه الصلاة والسلام " فكوا العاني[٥]، وأجيبوا الداعي وعودوا المريض "[٦]، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم حرص على فك أسرى المسلمين، فقد قال لسلمة بن الأكوع[٧] الذي نفله أبو بكر الصديق فتاة من قبيلة فزارة، بعد غزو المسلمين لديارهم:" يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك، فقال: يا رسـول الله ما كشفت لها ثوباً، فهي لك يا رسول الله، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة، وفي أيديهم أسرى من المسلمين، ففداهم بتلك المرأة"[٨]، وروي أنه أسر رجلاً من بني عـامر بـن صعـصعة، المحالفين لثقيف، ليتمكن من مبادلته برجلين من أصحابه أسرتهما هذه القبيلة[٩].

٤- لأن فك الأسير يعد عند العرب من مكارم الأخلاق، حتى قبـل البعثـة النبوية، فهذه ابنة حاتم الطائي تطالب النبي صلى الله عليه وسلم بفك أسرها، إكراماً لأبيها، وتحتج بصفاته النبيلة، وأهمها أنه كـان" يفـك العاني"[١٠]، وعندما جاء والد زيد بن حارثة وعمه وأخوه قبل البعثـة، ليخلصوه من الرق، ويأخذوه معهم، وأرادوا حث النبي صلى الله عليه وسلم على الاستجابة لمطلبهم، ذكّروه بمكارم الأخلاق التي يتمتع بها

---

[٣]- الإمام مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص١٩٩٩.
[٤] - المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٩٩.
[٥] - العَانِي: الأسير، يُقال عَنَا فلان فيهم أسيراً من باب سما، أي أقام على إساره ،فهو عَانٍ، وقوم عُنَاةٌ، ونسوة عَوَانٍ. الرازي، مختار الصحاح، ج١، ص١٩٢.
[٦] - البخاري، صحيح البخاري، ج٥، ص١٩٨٤.
[٧] - سلمة بن الأكوع الأسلمي، كان ممن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت يوم الحديبية، وكان بطلاً شجاعاً رامياً، وله مواقف مشهورة، توفي بالمدينة المنورة سنة(٧٤هـ= م). الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج١، ص٨٤.
[٨] - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج١١، ص٢٠٠- ٢٠١.
[٩] - ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج١١، ص:١٩٨ -١٩٩.
[١٠] - ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص٢١٣.

قومه، فقالوا:" يا بن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ولدنا عبدك، فامنن علينا وأحسن في فدائه"[١١]، فخيره النبي بينه وبين أهله، فاختار النبي على أهله، فقال صلى الله عليه وسلم:" اشهدوا أن زيداً ابني، يرثني وأرثه، فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا، فدعي زيد بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام، فنهاه الله تعالى عن ذلك[١٢]، حيث قال:" ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله"[١٣].

٥- اقتداء بسير الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام، ومن تبعهم من الخلفاء والأمراء، الذين اهتموا بتحرير المسلمين من ذل الأسر، ولا بد أن أخبارهم ومواقفهم قد وصلت إلى أهل الأندلس، فتأثروا بها واقتدوا، ومن هذه المواقف أن أهل قيسارية[١٤] أسروا عبد الله بن حذافة[١٥] سنة (١٩هـ=)[١٦]، " فقال له ملك الروم: تنصَّر أشركك في ملكي، فأبى، فأمر به فصُلِب، وأمر برميه بالسهام فلم يجزع، فأُنزل، وأمر بقِدْر فصُبَّ فيها الماء، وأُغلي عليه، وأمر بإلقاء أسير فيها، فإذا عظامه تلوح، فأمر بإلقائه إن لم يتنصر، فلما ذهبوا به بكى، قال: ردوه، فقال: لم بكيت؟ قال: تمنيت أن لي مائة نفس تُلقى هكذا في الله، فعجب، فقال: قبِّل رأسي وأنا أُخلي عنك، فقال: وعن جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم، فقبَّل رأسه، فخلى بينهم، فقدم بهم على عمر،

---

[١١] - ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة ج٢، ص٥٩٩ .

[١٢] - المصدر نفسه، ج٢، ص٥٩٩ .

[١٣] - الأحزاب، آية: ٥.

[١٤] - قيْساريَّة: بالفتح ثم السكون وسين مهملة وبعد الألف راء ثم ياء مشددة، بلد على ساحل بحر الشام، تعد في أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن، واسعة الرقعة، طيبة البقعة، كثيرة الخير والأهل. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٢١.

[١٥] - عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم القرشي السهمي، أبو حذافة، أو أبو حذيفة، وأمه تميمة بنت حرثان، من بني الحارث بن عبد مناة، من السابقين الأولين، يقال شهد بدراً، وشهد فتح مصر، وتوفي ودفن فيها في خلافة عثمان رضي الله عنه. ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، ص٥٧.

[١٦] - خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ج١، ص١٤٢ .

فقام عمر فقبَّل رأسه"[١٧]، وتراوح عدد الأسرى الذين عاد بهم عبد الله بين مائة إلى ثلاثمائة أسير[١٨]، ومنها أن" طلحة[١٩] فدى عشرة من أسارى بدر بماله[٢٠]، ومنها أن معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنه- أخذ قبل فتح قيسارية وبعده يحبس أسرى الروم عنده، ويقول: " ما صنع ميخائيل[٢١] بأسرانا صنعنا بأسراهم مثله، ففطمه عن العبث بأسرى المسلمين"[٢٢]. ومنها أنه في سنة (١٨٩هـ=) " فادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم حتى يقال: إنه لم يترك بها أسيراً من المسلمين"[٢٣].

٦- لأن فقهاء المسلمين أصدروا الفتاوى بأن فك أسرى المسلمين، وأهل ذمتهم واجب على المسلمين، حكاماً ومحكومين، قال أبو عبيد: "وكذلك أهل الذمة يُجاهَدُ من دونهم، ويُفْتَكّ عناتهم، فإذا استُنقِذوا رجعوا إلى ذمتهم وعهدهم أحراراً... فأما المسلمون فإن ذراريهم ونساءهم مثل رجالهم في الفداء، يحق على الإمام والمسلمين فكاكهم واستنقاذهم من

---

[١٧] - ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، ص٥٨؛ ينظر: تاريخ مدينة دمشق، ج٢٧، ص٣٥٨ .

[١٨] - سير أعلام النبلاء، ج٢، ص١٥.

[١٩] - طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشي التيمي المكي أبو محمد، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة له عدة أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، توفي ودفن في البصرة سنة(٣٦هـ= م). ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء،ج١، ص٢٣-٤٠.

[٢٠] - المصدر نفسه، ج١، ص٣١.

[٢١] - كان ملك الروم عندما فتحت قيسارية في خلافة عمر بن الخطاب هو هرقل، ولم تذكر مصادرنا من هو ميخائيل الوارد ذكره في الرواية، ومن المرجح أنه أحد القادة الرومان البارزين الذين كانوا يواجهون الجيش الإسلامي. ينظر: ابن الأثير، الكامل، ج١، ص٢٧٥.

[٢٢] - الطبري، تاريخ الطبري، ج٢، ص٤٤٧.

[٢٣] - ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٠، ص٢٠١ .

أيدي المشركين، بكل وجه وجدوا إليه سبيلاً، إن كان ذلك برجال أو مال، وهو شرط رسول الله على المهاجرين والأنصار"[٢٤].

ووقع ألوف من أهل الثغور في الأسر، وعرض ملك الروم على المسلمين افتداءهم، لكن أبا جعفر المنصور أبى، وذلك عقاباً لأهل الثغور الذين رفضوا أن يعينوه على الخارجين عن حكمه، فكتب الإمام الأوزاعي إلى أبي جعفر:" أما بعد فإن الله استرعاك هذه الأمة لتكون فيها باللين قائماً، وبنبيه صلى الله عليه وسلم في خفض الجناح والرأفة متشبهاً، وأنا أسأل الله أن يسكن على أمير المؤمنين دهماء هذه الأمة، ويرزقه رحمتها، فإن سائخة المشركين وموطئهم حريم المسلمين واستنزالهم العواتق من المعاقل، لا يلقون لهن ناصراً، ولا عنهن مدافعاً، كاشفات عن رؤوسهن وأقدامهن، وكان ذلك من الله بمرأى ومسمع، فليتق الله أمير المؤمنين، وليسع بالمفاداة فيهم من الله سبيلاً، وليخرج من حجة الله عليه، فإن الله قال لنبيه: {وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا}. والله يا أمير المؤمنين ما لهم يومئذ فيء موقوف، ولا ذمة تؤدي خراجاً إلا خاصة أموالهم، وقد بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إني لأسمع بكاء الصبي في الصلاة، فأتجوز فيها مخافة أن تفتن أمه، وكيف بتخليتهم في أيدي عدوهم يمتهنونهم ويطئونهم، وأنت راع، والله فوقك، ومستوف منك يوم توضع الموازين القسط ليوم القيامة. فلمَّا وصل كتابه أمر بالفداء"[٢٥].

٧- الغيرة على حرمات المسلمين، التي تنتهك بسبي نسائهم[٢٦]، وأسر أبنائهم[٢٧] وعلمائهم[٢٨] و جنودهم وقادتهم[٢٩] .

---

[٢٤] - أبو عبيد، الأموال، ج١، ص١٦٦.

[٢٥] - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج ٩، ص ٤٩٣.

[٢٦] - ينظر: ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٥، ص٣١٨؛ نفح الطيب، ج١، ص٤٠٣.

ثانياً: جهود الحكام لتحرير أسرى المسلمين في الأندلس:-

نَعِمَ مسلمو الأندلس منذ فتحها في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة (٩٢هـ=٧١١م)، كغيرهم من مسلمي ولايات الدولة الإسلامية، باهتمام السلطة الحاكمة بسلامتهم وراحتهم وأمنهم، فقد كان للمسلم قيمة كبيرة في عين حكامه، لدرجة أن الخليفة الوليد بن عبد الملك قد فرض لكل كفيف في الدولة الإسلامية قائداً يتقاضى راتباً من الدولة، مقابل خدمته، ولكل مقعد خادماً يتولى مساعدته، ويسهر على راحته، ولم يغفل حتى عن أصحاب الأمراض المزمنة، والمجذومين، إذ أجرى عليهم الرواتب، وعين لهم الأطباء، وخصص لهم الأرزاق، وبنى لهم المشافي[٣٠].

إن هذا الاحترام للإنسان في الدولة الإسلامية، هو الذي جعل للأسير المسلم قيمة سامقة عند حكام المسلمين، فحركوا من أجل إنقاذه الجيوش، وبذلوا الأموال، وخاضوا المعارك، وضحوا بالنفوس، فقد بلغ الحجاج بن يوسف في خلافة الوليد أن نسوة مسلمات قد أسرن في بلاد السند، وأن إحداهن قد صاحت " يا حجاج" فقال: " يا لبيك"، وأرسل إلى داهر ملك السند أن يأتيه بالأسيرات، فاعتذر إليه بأنه لا يستطيع لأنهن في قبضة قطاع طرق، ولا يمكنه الوصول إليهم، فأرسل الحجاج حملتين لإنقاذ الأسيرات، وعندما فشلتا جهز جيشاً ضخماً، قاده محمد بن القاسم، ففتح بلاد السند، وحررهن[٣١]، وعن ذلك يقول الطبري:" وقد بلغني أن الحجاج بن يوسف غضب على صاحب السند في امرأة أسرت من المسلمين، وأدخلت إلى بلاد السند، حتى غزا السند، وأنفق

---

[٢٧] - ينظر: الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٤، ص١١٦.

[٢٨] - ينظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٥، ص٣١١ .

[٢٩] - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج٣/ص٢٣.

[٣٠] - الطبري، تاريخ الرسل، ج٤، ص٢٤؛ ابن الأثير، الكامل، ص٢٩٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص١٦٤.

[٣١] - البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص٤٢٣.

بيوت الأموال، حتى استنقذ المرأة، وردها إلى مدينتها"[٣٢]، ولا شك أن هذه السياسة تجاه الأسرى قد شملت الأندلس، التي أصبحت ولاية تابعة لخلافة الوليد بعد فتحها الذي بدأ سنة (٩٢هـ= م)[٣٣].

وقد أدرك أعداء المسلمين في ذلك الوقت مكانة المسلم عند حاكمه، وأنهم يمكن أن يتعرضوا لغضب الخليفة إذا ما أسروا مسلماً، فكان ملوكهم يسارعون إلى فك الأسير المسلم حتى قبل أن يطالب المسلمون بفكه، يقول الطبري أنه في سنة (٩٠هـ= م) " أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر، فذهبوا به إلى ملكهم، فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك"[٣٤].
وعلى الدرب نفسه سار سليمان بن عبد الملك " فأحسن السيرة، ورد المظالم، وفك الأسرى، وأطلق أهل السجون"[٣٥].

كما ظهرت مكانة الأسير المسلم عند حكومته في خلافة عمر بن عبد العزيز التي كانت الأندلس تابعة له، يظهر ذلك من خلال العديد من الروايات، منها أنه كتب إلى "بعض عماله أن فادوا بأسارى المسلمين، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم"، ومنها ما يرويه عبد الأعلى بن أبي عمرة، الذي يقول: " لما بعثني عمر بن عبد العزيز لفداء أسراء القسطنطينية، قلت: أرأيت إن أبوا أن يفدوا الرجل بالرجل كيف أصنع؟ قال: زدهم، قلت: أرأيت إن أبوا أن يفدوا الرجل بالاثنين للرجل، قال: فأعطهم ثلاثة، قلت: فإن أبوا إلا أربعة؟ قال: فأعطهم بكل مسلم ما سألوا، فوالله للرجل من المسلمين أحب إليّ من كل مشرك عندي، إنك ما فديت به المسلم، فقد ظفرت، إنك إنما تشتري الإسلام، فقلت له: أرأيت إن وجدت رجالاً قد تنصروا، فأرادوا أن يرجعوا إلى الإسلام، أفديهم؟ قال: نعم بمثل ما يفدى به غيرهم، فقلت له: أرأيت العبيد، أفديهم إذا كانوا مسلمين؟

---

[٣٢] - تاريخ الرسل، ج٥، ص٢٥١.
[٣٣] - ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٢٦٧.
[٣٤] - تاريخ الرسل، ج٣، ص٣٨٦.
[٣٥] - ابن الجوزي، المنتظم، ج٧، ص١٣.

قال: نعم بمثل ما يفدى به غيرهم، قلت: أرأيت إن وجدت منهم من قد تنصر، فأراد أن يرجع إلى الإسلام؟ قال: اصنع بهم مثل ما تصنع مع غيرهم، قال: فصالحت عظيم الروم على رجل من المسلمين برجلين من الروم"[٣٦].

وقد سجل أحد مؤرخي الأندلس رواية تؤكد مكانة الأسير المسلم في نظر الحاكم المسلم الملتزم بدينه، ولا بد أنها وصلت إلى مسلمي الأندلس فتأثروا بها، يقول:" أرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولاً، فخرج من عنده يدور، فمرَ بموضع، فسمع فيه رجلاً يقرأ القرآن ويطحن، فأتاه فسلَّم عليه فلم يرد عليه السلام، مرتين أو ثلاثاً، ثم سلم، فقال له: وأنى للمرء بهذا البلد، فأعلمه أنه رسول عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم، وقال له: ما شأنك؟ قال: إني أسرت من موضع كذا وكذا، فأُتي بي إلى صاحب الروم، فعرض عليَّ النصرانية فأبيت، فقال لي: إن لم تفعل سملت عينيك، فاخترت ديني على بصري، فسمل عينيَّ، وصيرني إلى هذا الموضع، يرسل إليَّ في كل يوم بحنطة أطحنها، وخبزة آكلها، فلما صار الرسول إلى عمر أخبره خبر الرجل، قال: فما فرغت من الخبر، حتى رأيت دموع عمر بن عبد العزيز قد مثلت بين يديه، ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم: أما بعد، فقد بلغني خبر فلان بن فلان، فوصف صفته، وإني أقسم بالله لئن لم ترسل إليَّ به لأبعثن إليك جنوداً يكون أولهم عندك وآخرهم عندي، فلما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعت، فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ما كنت لأحمل الرجل الصالح على هذا، بل أبعث به إليه، قال: فبعث به إليه، فوجد عمر بن عبد العزيز قد مات"[٣٧].

ولولا قوة المسلمين في ذلك العهد، وتجارب الروم القاسية معهم، وأنهم إذا قالوا صدقوا، وإذا هددوا نفذوا، وأنهم يمكن أن يخوضوا الحرب من أجل

---

[٣٦] ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٣٣، ص٤١٩.
[٣٧] - التكملة لكتاب الصلة، ج١، ص:١٨٩ - ١٩٠.

تحرير أسير واحد، لما رضخ الروم، وسارعوا إلى إطلاق سراح الأسير المسلم.

كما تتأكد مكانة الأسير المسلم عند الحاكم المؤمن الملتزم بدينه من رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أسرى المسلمين في القسطنطينية التي كتب إليهم فيها:" أما بعد فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، معاذ الله، بل أنتم الحبساء في سبيل الله، واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه، وإني قد بعثت إليكم بخمسة دنانير، ولولا أني خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان، يفادي صغيركم وكبيركم وذكركم وأنثاكم وحركم ومملوككم بما سئل به، فأبشروا ثم أبشروا والسلام عليكم"[٣٨]. إنها رسالة تمتلئ بالحب والوفاء والعاطفة الصادقة والجدية والشعور بالمسئولية نحو أسرى المسلمين في كل مكان.

وعلى الدرب نفسه سار ولاة الأندلس، فهذا عنبسة بن سحيم الكلبي(ت: شعبان١٠٧هـ=) يتوجه على رأس جيش كبير إلى مدينة قرقشونة[٣٩]، فيحاصرها، ولا يفك عنها الحصار إلا بعد خضوع أهلها للصلح، وموافقتهم على إطلاق سراح كل الأسرى " فصالحوه على نصف أعمالها، وعلى جميع ما في المدينة من أسرى المسلمين وأسلابهم، وأن يعطوا الجزية، ويلتزموا بأحكام الذمة، من محاربة من حاربه المسلمون، ومسالمة من سالموه"[٤٠] .

وهذا هشام بن عبد الرحمن الداخل (ت: ١٨٠هـ= م) الذي اشتهر بالصلاح والاستقامة والجهاد، حتى شبه بعمر بن عبد العزيز " بلغ من عز الإسلام في أيامه، وذلّ الكفر، أن رجلاً مات في أيامه، وكان وصّى أن يَفُكّ أسيراً من

---

[٣٨] - سيرة عمر بن عبد العزيز، ج١، ص١٤٤.

[٣٩] - آخر الحصون التي انتهى إليها موسى بن نصير عند فتحه للأندلس، بينه وبين قرطبة، مسيرة خمسة وعشرين يوماً.

[٤٠] - ابن الأثير، الكامل، ج٤، ص٣٧٧. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٣٢٨.

المسلمين من تركته، فطلب ذلك فلم يوجد في دار الكفار أسير يُشترى ويُفَـك، لضعف العدو، وقوة المسلمين"[٤١].

وللأمير الحكم بن هشام الربضي(ت: ٢٠٦هـ= م) موقف رائع يستجيب فيه لاستغاثة امرأة مسلمة قتل العدو وأسر جماعة من أهلها، يرويـه المقـري، فيقول:" ومن بديع أخبار الحكم أن العباس الشاعر توجه إلى الثغر، فلما نـزل بوادي الحجارة سمع امرأة تقول: واغوثاه بك يا حكم، لقد أهملتنا، حتى كلـب العدو علينا، فأيَّمنا، وأيتمنا، فسألها عن شأنها، فقالت: كنت مقبلة من البادية في رفقة، فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت، فصنع قصيدته التي أولهـا

تململتُ في وادي الحجارة مسهراً ... أراعي نجوماً ما يُردن تغـــوُّرا
إليك أبا العاصي نضيتُ[٤٢]مطيّتـي ... تسير بهم سارياً ومهجـــــرا
تدارك نساء العالمين بنصـــرة ... فإنك أحرى أن تُغيث وتنصـــرا

فلما دخل عليه أنشده القصيدة، ووصف له خوف الثغر، واستـصراخ المـرأة باسمه، فأنِف ونادى في الحين بالجهاد والاستعداد، فخرج بعد ثلاث إلى وادي الحجارة، ومعه الشاعر، وسأل عن الخيل التي أغارت مـن أي أرض العـدو كانت؟ فأُعلم بذلك، فغزا تلك الناحية وأثخن فيها، وفـتح الحـصون، وخـرب الديار، وقتل عدداً كثيراً، وجاء إلى وادي الحجارة، فـأمر بإحـضار المـرأة، وجميع من أسر له أحد في تلك البلاد، فأحضروا، فأمر بضرب رقاب الأسـرى بحضرتها، وقال للعباس: سلها هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة –وكانت نبيلة– : والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدو، وأغاث الملهوف فأغاثه الله، فارتـاح لقولها، وبدا السرور في وجهه، وقال:

ألم تر يا عباس أني أجبتهـــا ... على البعد أقتاد الخميس المُظَفَّـــرا

---

[٤١] - المصدر نفسه، ج٥، ص٣٠٨.

[٤٢] - النّضنوُ بالكسر البعير المهزول، والناقة نِضنوَةٌ، وقد أنضَتْها الأسفار، فهي مُنضَاةٌ، و أنضَى بعيره هزله، و نَضَا ثوبه خلعه، ونَضَا سيفه سلّه، والمقصود أنه أهزل فرسه نصرة للحكم. الرازي، مختار الصحاح، ج ١، ص ٢٧٧.

فأدركت أوطاراً[٤٣]، وبرَّدتُ غلة ونفَّست مكروباً، وأغنيتُ مُعسِرا

فقال عباس: نعم جزاك الله خيراً عن المسلمين، وقبَّل يده" [٤٤].

ويروي ابن الأثير هذه الحادثة فيقول:" فأتاه الخبر بشدة الأمر على أهل الثغور، وما بلغ العدو منهم، وسمع أن امرأة مسلمة أخذت سبية، فنادت واغوثاه يا حكم، فعظم الأمر عليه، وجمع عسكره، واستعد وحشد وسار إلى بلد الفرنج سنة ست وتسعين ومائة، وأثخن في بلادهم، وافتتح عدة حصون، وخرب البلاد ونهبها، وقتل الرجال، وسبى الحريم، ونهب الأموال، وقصد الناحية التي كانت بها تلك المرأة، فمرَّ لهم من الأسرى بما يفادون به أسراهم، وبالغ في الوصية في تخليص تلك المرأة، فتخلصت من الأسر، وقتل باقي الأسرى، فلما فرغ من غواته قال لأهل الثغور: هل أغاثكم الحكم؟ فقالوا: نعم"[٤٥]

وغزا عبد الرحمن بن الحكم(الأوسط) الشمال الأسباني(٢٠٦- ٢٣٨هـ= ٨٢٢-٨٥٢م) أثناء ولايته على جليقيا، وفي آخر سنة من إمارة أبيه، " فخرَب كثيراً من البلاد وانتسفها، وفتح كثيراً من حصونهم، وصالح بعضَها على الجزية، وإطلاق أسرى المسلمين، وانصرف ظافراً"[٤٦].

وكان ولاة الأندلس يدركون أن تحرير أسرى المسلمين من أيدي الأعداء مهمة مقدسة، تستحق أن تخصص لها الأموال الطائلة، فهذا عبيد الله بن يحيى أمير الثغر الأعلى بالأندلس، يرسل إلى أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم سنة (

---

[٤٣] - وطر : الوَطرُ كلُّ حاجةٍ كان لصاحبها فيها همّة، فهي وَطرُه، قال: ولم أسمع لها فعلاً أكثر من قولهم قضيت من أمر كذا وَطري أي حاجتي، وجمع الوَطر أوْطارٌ . قال الله تعالى: ^ فلما قضَى زَيْدٌ منها وَطراً . ابن منظور، لسان العرب ج ٥ ص ٢٨٥.

[٤٤] - المقري، نفح الطيب، ج١، ص٣٤٣-٣٤٤.

[٤٥] - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص٣٧٠.

[٤٦] - المصدر نفسه، ج١، ص ٣٤٥.

٢٣٦هـ= م) بأنه قد عزم على تخصيص ما يزيد من دخل إمارته بعد دفع الرواتب وغيرها لفكاك الأسرى، فيقره الأمير على ذلك[٤٧].

وفي (جمادى الآخرة ٢٠٨هـ=م) "سيَّر عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى بلاد المشركين، واستعمل عليه عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، فساروا إلى ألبة والقلاع[٤٨]، فنهبوا بلاد إلبة وأحرقوها، وحصروا عدة من الحصون، ففتحوا بعضها، وصالحه بعضها على مال وإطلاق الأسرى من المسلمين، فغنم أموالاً جليلة القدر، واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبيهم كثيراً"[٤٩]، وقد أكد ابن خلدون هذه الحادثة، وذكر أن عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث قد غزا " ألبة والقلاع، فخرب كثيراً من البلاد وانتسفها، وفتح كثيراً من حصونهم، وصالح بعضاً على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين، وانصرف ظافراً"[٥٠].

وفي سنة (٢٥٩هـ =م) " سارت سرية للمسلمين إلى مدينة سرقوسة، فصالحه أهلها، على أن يطلقوا الأسرى الذين كانوا عندهم من المسلمين، ثلاثمائة وستين أسيراً، فلما أطلقوهم عاد عنهم"[٥١].

لقد كان إطلاق الأسرى المسلمين شرطاً مهماً تمسك به حكام الأندلس في عهد الإمارة، مما يؤكد مكانة الأسير المسلم في نظر قيادته في ذلك العهد.

وتعرض للأسر هاشم بن عبد العزيز كبير وزراء أمير الأندلس محمد الأول (٢٣٨-٢٧٣هـ=٨٥٢-٨٨٦م) أثناء مهمة عسكرية في غرب الأندلس، فافتدي بمال عظيم.[٥٢].

---

[٤٧] - ابن حيان، المقتبس، ج١، ص٢، (المكتبة الشاملة)

[٤٨] - مناطق تابعة لمملكتي قشتالة وليون، في الجزء الشمالي الشرقي منهما، وهي مجاورة لأرض الروم. ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص ٥٨٣-٥٨٥، حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ص١٧٥.

[٤٩] - ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٤٧١.

[٥٠] - ابن خلدون، تاريخ، ج٤، ص١٦٤.

[٥١] - ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص٢٤٤.

وعلى الدرب نفسه سار حكام الأندلس الأمويون في عهد الخلافة، يدل على ذلك أن المنصور بن أبي عامر(ت:٣٩٣هـ=م) قد أوغل في دويلات الشمال الأسباني، وحقق انتصارات كبيرة عليهم، حتى أنه " لم يترك أسيراً في بلادهم من المسلمين "[٥٣] إلا حرره، فامتدحه الشعراء، وكُتب على قبره:

آثاره تنبيك عن أوصافه ... حتى كأنك بالعيان تراه

تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ... ولا يحمي الثغور سواه[٥٤].

ويقدم المقري رواية تشهد على دور المنصور بن أبي عامر في تحرير أسرى المسلمين، وتبين كيف قرر أن يخوض حرباً من أجل تحرير أسيرة واحدة، وتظهر ذل المشركين، وعزّ المسلمين عندما يتمسكون بمبادئ دينهم، ويجاهدون في سبيل الله، إذ تتحدث الرواية عن رسول للمنصور كان كثير التردد على ديار النصارى، يفاوض ملوكهم، وأنهم كانوا يبالغون في إكرامه خوفاً من بطش المنصور، وأنه في إحدى زياراته لبلاد البشكنس، زار كنائس كثيرة، وأثناء زيارته لإحدى الكنائس " عرضت له امرأة قديمة الأسر، قويمة على طول الكسر، فكلمته، وعرّفته بنفسها، وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه لبوسها؟! ويتمتع بلبوس العافية، وقد نضت[٥٥] لبوسها؟! وزعمت أن لها عدة سنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذل وصغار ملبسة، وناشدته الله في إنهاء قصتها، وإبراء غصّتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه في ذلك أوكد مواثيق الرحمن، فلما وصل إلى المنصور عرّفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مُصْغٍ إليه، حتى تمّ كلامه، فلما فرغ

---

[٥٢] - ابن سعيد، المغرب، ج١، ص٥٣.

[٥٣] - المقري، نفح الطيب، ج٣، ص ١٨٩.

[٥٤] - المصدر نفسه، ج٣، ص١٨٩.

[٥٥] - ناضَ الشيءَ يَنُوضُه نَوْضاً: أراغَه لينتزعه، كالغُصْن والوَتَدِ ونحوهما. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص ٢٤٧.

قال له المنصور: هل وقفت هناك على أمر أنكرته؟ أم لم تقف على غير ما ذكرته؟ فأعلمه بقصة المرأة، وما خرجت عنه إليه، وبالمواثيق التي أخذت عليه، فعتبه ولامه على أن لم يبدأ بها كلامه، ثم أخذ للجهاد من فوره، وعرض من الأجناد في نجده وغوره، وأصبح غازياً على سرجه، مباهياً مروان يوم مرجه، حتى وافى ابن شانجة في جمعه، فأخذت مهابته ببصره وسمعه، فبادر بالكتاب إليه، يتعرف ما الجلية، ويحلف له بأعظم ألية، أنه ما جنى ذنباً، ولا جفا عن مضجع الطاعة جنباً، فعنَّف أرساله، وقال لهم: كان قد عاقدني أن لا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور، ولو حملته في حواصلها النسور، وقد بلغني بعدُ بقاء فلانة المسلمة في تلك الكنيسة، ووالله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها، فأرسل إليه المرأة في اثنتين معها، وأقسم أنه ما أبصرهنَّ، ولا سمع بهنَّ، وأعلمه أن الكنيسة التي أشار بعلمها، قد بالغ في هدمها، تحقيقاً لقوله، وتضرَّع إليه في الأخذ فيه بطَوْله، فاستحيا منه، وصرف الجيش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحف توحشها بأُنْسه، وغيَّر من حالها، وعاد بسواكب نعماه، على جدبها وإمحالها"[٥٦].

وفي سنة (٣٩٦هـ=) حاول ملك القسطنطينية أن يسترضي عبد الملك بن المنصور، ليتوقف عن غزو جليقية، وليستمر في مهادنة شانجة، فأرسل إليه هدية، ومجموعة من أسرى المسلمين في الأندلس، أُسروا بأطراف جزائره البحرية، فسُرَّ عبد الملك بذلك، وإذا كتابه مكتوبٌ بالذهب، على رسم ملوك الروم "، كما سُرَّ أحد شعراء الأندلس، بهذا العز للإسلام وأهله، الذي جعل ملك القسطنطينية، يتقرب لعبد الملك بن المنصور، ويسترضيه، فيطلق سراح أسرى مسلمين، لم يطالب عبد الملك بهم، لأنه لا يعلم خبرهم، فقال:

زلزلت بالمرهفات صاحب قسطنطين ... حتى اتقاك بالكتب

يطلب فيها رضاك مجتهداً ... من قبل أن يتقيك بالهرب

---

[٥٦] - المقري، نفح الطيب، ج١، ص٤٠٣-٤٠٤.

فليس بالفائت البعيد مع الله إذا ما هممت بالطلـــب[٥٧].

وما كان لهذه العزة أن تتحقق لعبد الملك وللأسرى ولجميع المسلمين في الأندلس، إلا بالجهاد الذي يعز الله به المسلمين حكاماً وشعوباً، ويذل ويعذب بتركه كل من تقاعس عنه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب"[٥٨].

ولم أجد في مصادرنا معلومات عن دور حكام الطوائف والمرابطين في تحرير الأسرى في الأندلس، أما عن دور حكام الموحدين فهناك رواية تبين أنه بعد معركة الأرك(شعبان ٥٩١هـ=) التي انتصر فيها المسلمون بقيادة الخليفة يعقوب المنصور على ثلاثة من ملوك الفرنجة وهم ابن أذفونش وابن الرند والبيبوج، " اعتصم فلهم بحصن الأرك، وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم، فاستنزلهم المنصور على حكمه، حتى فودي بهم عددهم من المسلمين"[٥٩].
وفي عهد الموحدين أدرك أعداء المسلمين مكانة الأسير المسلم في نظر الحاكم، فأرادوا استغلال ذلك، فطالبوا بمبلغ كبير من المال لافتداء أسير مسلم، هو أبو محمد عبد الله بن عذرة، فكتب في ذلك للسلطان الناصر محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن
(صفر ٥٩٥- شعبان ٦١٠هـ=)، " فأمر ألا يُسمع منه في إعطاء هذا المال العظيم، فإن فيه تقوية للعدو، فبات في طليطلة أسيراً، وكتب من موضع أسره إلى بلده:

لو كنتَ حيث تجيبني لأذاب قلبَك ما أقول

---

٥٧ - ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٧، ص٨٦.
٥٨ - الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٥، ص٢٨٤.
٥٩ - الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٤، ص٩٦.

يكفيكَ منِّي أننـــــــي ما أستقل من الكبـــول[٦٠]
وتجاه لحظي ألف لحظ كـــي أقـــــر ولا أزول
وإذا أردت رسالـــة لكم فما أُلفـي[٦١] رسول"[٦٢] .

ومن شعره قوله:

بعض برجليَّ الحديد وليس لي حـــراك لما أبغـــي ولا أتنقل
وقد منع السلطان مالي لفديـــة فماذا الذي يغنى الغني والتحول[٦٣]

ثالثاً: جهود العلماء والصالحين لتحرير أسرى الأندلس

لم تقتصر جهود تحرير الأسرى على الحكام، بل لقد بذل العلماء والصالحون أموالهم في هذا السبيل، وتشير المعلومات المتوفرة في مصادرنا إلى أن تحرير الأسرى في زمن قوة الحكام وجهادهم لأعدائهم كان يعتمد بالدرجة الأولى على القتال والحصار والمبادلة بأسرى الأعداء، بينما اعتمد في عهود ضعف الحكام على المفاداة بالمال، التي يقوم بها على الأغلب الأفراد من علماء وأثرياء وصالحين.

وأول إشارة وجدتها في مصادرنا لأفراد يسعون إلى تحرير أسرى في الأندلس هو ذلك الرجل الذي أشرنا إليه سابقاً في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل(ت: ١٨٠هـ=) الذي أوصى قبل موته بفك أسير مسلم من تركته، فلم يجدوا في دار الكفر أسيراً واحداً[٦٤]، وذلك لأن حكام ذلك العهد الأقوياء المجاهدين كفوا الناس هذه المهمة.

---

٦٠ - كبل : الكَبْل: قيْد ضخم . وقيل: الكَبْل والكِبْل القيْد من أيّ شيء كان، وقيل: هو أعظم ما يكون من الأقياد، وجمعهما كُبُول . يقال: كَبَلْت الأسير و كَبَّلته إذا قيَّدته، فهو مَكْبُول و مُكَبَّل . ابن منظور، لسان العرب، ج ١١، ص ٥٨٠.

٦١ - ألفى الشيء: وجده، يقال: ألفيت الشيء ألفيه إلفاء: إذا وجدته وصادفته ولقيته. ابن منظور، لسان العرب، ج١٥، ص٢٥٢.

٦٢ - ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص١٤٨- ١٤٩.

٦٣ - المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٩.

٦٤ - ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٣٠٨.

وممن أسهموا في تحرير الأسرى العالم الثري يوسف بن مؤذن بن عيشون المعافري، من أهل وشقة(ت: ربيع الأول ٣٠٩هـ=)، فقد " كان من المنفقين فى سبيل الله، ذكر أنه فك نحو من مائة أسير"[٦٥].

وعلي بن محمد بن دري(ت: رمضان ٥٢٠هـ=) وأصله من طليطلة، وتوفي في غرناطة، ووصف بأنه من خيار الناس وفضلائهم، ومن أهل المعرفة منهم، وكانت عنده " مسارعة لقضاء الحوايج، والمشي للإصلاح بين الناس، والإشفاق على المساكين، كثير الصدقة، والسعي في فداء الأسرى"[٦٦].

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجد الأنصاري البلنسي (بعد ٥٣٠-٥٩٨هـ=)، الذي كان " من أهل الصلاح والفضل والورع كثير البر ومفاداة الأسرى ويحترف بالتجارة"[٦٧].

وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجر الأنصاري من أهل بلنسية، الذي وصف بأنه " من أهل الصلاح والفضل والورع متحققا بأعمال البر، من الصدقات ومفاداة الأسارى، محترفاً بالتجارة"[٦٨].

وقد شاركت في هذا العمل النبيل حتى النساء، فهذه أم العلاء سيدة بنت عبد الغني بن علي بن عثمان(ت:٥-محرم-٦٤٧هـ=)، من أهل غرناطة، وسكن أبوها مرسية، وأصلها من لاردة، وهي ابنة قاضي أريولة، توفي وتركها يتيمة، فتعلمت القرآن واشتهرت ببراعة الخط " والمحافظة على الأدعية والأذكار، والسعي في الخيرات، والتوفر على أعمال البر والإيثار بما تملك، وفك الرقاب من الأسر"[٦٩].

لقد اندفع العلماء والصالحون الأثرياء لتحرير الأسرى ابتغاء الأجر من الله تعالى كما بينا سابقاً، وتعاطفاً مع إخوانهم وأخواتهم الذين كانت أخبار معاناتهم تصل إليهم، من خلال الرسائل التي يرسلون بها إلى أهلهم

---

٦٥ - ابن الفرضي، تاريخ العلماء بالأندلس، ج٢، ص٢٠٢ -٢٠٣.
٦٦ - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة ، م٤، ص١٠١-١٠٢.
٦٧ - المقري، نفح الطيب، ج٢، ص٢٣٩.
٦٨ - ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج٢، ص٧٨.
٦٩ - المصدر نفسه، ج٤، ص٢٦٥.

وأصدقائهم، مع من يمنّ الله عليهم بالخلاص من الأسر، أو مع الذين يزورون ديار الأعداء لأسباب مختلفة، فتهتز مشاعرهم، ولا يطيب لهم عيش والمسلمون والمسلمات يتعذبون في ذل الأسر.

فهذا عبد الرحمن بن طاهر يؤسر في بلنسية سنة(٤٨٨هـ=)، ويشهد محنة المسلمين فيها على يد الكنبيطور، فيكتب إلى بعض إخوانه يقول:" وقد حصلنا في قبضة الأسر، بخطوب لم تجرِ في سالف الدهر، فلو رأيتَ قطر بلنسية- نظر الله إليه وعاد بنوره عليه- وما صنع الزمان به وبأهليه، لكنت تندبه وتبكيه، فلقد عبث البلى برسومه، وعفى على أقماره ونجومه، فلا تسأل عما في نفسي، وعن نكدي ويأسي، وضممت الآن إلى الإفتداء، بعد مكابدة أهوال ذهبت بالدماء، وما أرجو غير صنع الله الذي عود، وفضله الذي عهد، ومساهمتك مساهمة الصفي، لما أعلم من وفائك، وتهممك الحفي، مستمطراً من تلقائك، دعوة إخلاص عسى أن تكون سريعة"[٧٠].

وهذا أسير يرسل إلى صديقه رسالة مع أسير فادى نفسه بكل ما يملك من مال، وارتهن أبناءه في الأسر، إلى أن يتمكن من افتدائهم، يستحثه فيها على مساعدته، فيقول:" وموصل كتابي رجل من الثغر، ووجوه الأطراف، امتحنته الأيام في النعم، أوان الشيخ والهرم، وابتلته بذل الأسر، وطول الشقاء في دار الكفر، وبحسب حاله في الثروة، ومكانه من النجدة، اشتط عليه، وأخذ منه في الفداء، جميع ما في يديه، وارتهن أولاده في بقايا بقيت عليه، وأنت بفضلك تحملها في مالك، ولا يضيق عنها حالك، حتى تفوز وحدك بأجرها، ولا يُسهم لغيرك في ذخرها، وتنفرد بجمال الذكر في خبره، وتتلافى ما اختل من أمره"[٧١].

---

[٧٠] - ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٥، ص٩١.
[٧١] - المصدر نفسه، ج٥، ص٣١١.

ويروي محمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتاني المتطبب، حادثة شاهدها بأم عينه، فهزت مشاعره، ونغصت عيشه، يقول:" شهدت يوماً مجلس العلجة بنت شانجه، ملك البشكنس، زوج الطاغية شانجه بن غرسية بن فرذلند، بدد الله شيعتهم، لبعض ترددنا عن ثغرنا إليه في الفتنة، وفي المجلس عدة قينات مسلمات، من اللواتي وهبهن له سليمان بن الحكم[٧٢]، ... فأومأت العلجة إلى جارية منهن، فأخذت العود، وغنت بهذه الأبيات:

خليلي ما للريح تأتي كأنما ... يخالطها عند الهبوب خلوق
أم الريح جاءت من بلاد أحبتي ... فأحسبها ريح الحبيب تسوق
سقى الله أرضاً حلها الأغيد[٧٣] الذي ... لتذكاره بين الضلوع حريق
أصار فؤادي فرقتين فعنده ... فريق وعندي للسياق فريق

فأحسنت وجودت، وعلى رأس العلجة جاريات من القوامات أسيرات، كأنهن فلقات قمر، فما هو إلا أن سمعت إحداهن الشعر، فأرسلت عينيها، كأنهما مزادتان[٧٤]، فرققت لها، وقلت: ما أبكاك؟ قالت: هذا الشعر لأبي، وسمعته فهيج شجوي، فقلت لها: يا أمة الله، ومن أبوك؟ قالت: سليمان بن مهران السرقسطي، ولي في هذا الإسار مدة، ولم أسمع لأهلي بعد خبراً"، ويختم ابن الكتاني شهادته فيقول:" فما جزعت على شيء جزعي عليها يومئذ"[٧٥]. وعلق ابن بسام على هذه الرواية التي أوردها ، فقال:" ولم يخبر ابن الكتاني أنه امتعض لفك أسر تلك الجارية هنالك، ولا وفقه الله لشيء من ذلك، وكان تركه

---

[٧٢] - هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموي، لقب بالمستعين، وبايعه الناس بقرطبة (سنة ٤٠٣هـ=)، استعان بالنصارى على ابن عمه الذي خرج عليه وهو المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، ويبدو أنه وهب إلى شانجة بعض الفتيات المسلمات اللائي أسرهن في صراعه مع خصومه، قتل في قرطبة سنة (٤٠٧هـ=)، على يد علي بن حمود بن أبي العيس العلوي، الذي ولي على الأندلس. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١١، ص ٣٤٨، ج١٢، ص٤٥؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ج٢، ص٥.

[٧٣] - الغَيد بفتحتين النعومة، وامرأة غَيْدَاءُ، و غادَةٌ أي ناعمة، والأغيَد الوسنان المائل العنق. الرازي، مختار الصحاح، ج ١، ص ٢٠٣.

[٧٤] - المزادة: جمعها مزايد، وهي الظرف الذي يحمل فيه الماء، كالراوية والقربة والسَّطيحة. ابن منظور، لسان العرب، ج ٣، ص ١٩٩ .

[٧٥] - ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج٥، ص٣١٨-٣١٩.

لها في الأسر، مع ما أطْلَعَتْهُ عليه من الأمر، مما يُوقِدُ الضُلوع، ويسكب الدموع"[٧٦] .

لقد استفزت دموع هذه الأسيرة ابن بسام الشنتريني، وجعلته ينكر على ابن الكتاني، حزنه وتألمه على حال هذه الأسيرة، دوت الإقدام على خطوات عملية لتحريرها، وهو ما يجب على حكام المسلمين وشعوبهم في كل زمان ومكان، إذ يتوجب عليهم ألا يكتفوا بالحزن والألم عندما تصلهم أخبار و معاناة أخواتهم و إخوانهم المأسورين، في سجون الأعداء، بل لا بد من خطوات عملية تعجل في تحريرهم.

الخاتمة ونتائج البحث:

تم بفضل الله تعالى وحمده الانتهاء من هذا البحث، وقد توصل الباحث من خلاله إلى العديد من النتائج أهمها: -

- أن مسلمي الأندلس حكاماً ومجتمعاً حرصوا على تحرير أسراهم رغبة في الأجر من الله تعالى، وشعوراً بالمسئولية والمحبة تجاه إخوانهم، وعملاً بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، واقتداء بسير الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام، ومن سار على دربهم من الخلفاء والحكام والقادة الصالحين المجاهدين.
- أن للأسير المسلم قيمة عالية في نظر حكام الأندلس المسلمين الأقوياء الملتزمين بمبادئ دينهم، جعلتهم يخوضون الحروب من أجل تحرير أسيرة مسلمة أو أسير.

---

[٧٦] - المصدر نفسه، ج٥، ص ٣١٩.

- أن أعداء المسلمين أدركوا مكانة الأسير المسلم في عين حكامه، فكان بعضهم يسارع لفك الأسرى حتى قبل أن يعلم بهم المسلمون ويطالبوا بإطلاقهم.
- أن المجتمع الإسلامي في الأندلس كان يقدر ويمدح الحاكم الذي ينجح في إنقاذ الأسرى من سجون الأعداء.
- أن فكاك أسرى المسلمين كان شرطاً رئيساً لوقف القتال أو فك الحصار عن المدن التي كان المسلمون يقومون بغزوها.
- أن القوة العسكرية ومبادلة الأسرى بالأسرى كانت الطريقة التي يخلص بها المسلمون أسراهم في زمن القوة والجهاد، وأن الافتداء بالمال من قبل الحكام أو الأفراد كان الطريق إلى تخليصهم في عهود الضعف والتقاعس.
- أن كثيراً من العلماء والأثرياء الصالحين والصالحات قد أسهموا في تحرير أسرى مسلمين أندلسيين من سجون الأعداء.
- أن إحدى طرق التخلص من الأسر في أوقات ضعف السلطة الإسلامية هو أن يفدي الأسير نفسه، بما يملك من أموال، أو يراسل إخوانه وأصدقاءه، ويستحثهم على افتدائه بأموالهم.
- أن معاناة الأسرى والأسيرات في دار العدو كانت تؤرق أصحاب الضمائر من المسلمين، وتدفعهم لافتداء إخوانهم.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم
ثانياً: المصادر العربية

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي،(ت:٦٥٨هـ=١٢٦٩م).

١- التكملة لكتاب الصلة، ٤ج، تحقيق: عبد السلام الهراس، لبنان، دار الفكر للطباعة، ١٤١٥هـ=١٩٩٥م .

٢- الحلة السيراء، ١ج، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٨٥م.

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني(ت:٥٦٠هـ=١١٦٤م).

٣- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٢ج، بيروت، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م.

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني(٦٣٠هـ= ١٢٣٣م).

٤- الكامل في التاريخ، ١١ج، تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤١٥هـ.

البخاري، محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفي(ت: ٢٥٦هـ= ٨٧٠م)

٥- صحيح البخاري، ٦ج، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، بيروت، دارابن كثير، ط٣، (١٤٠٧هـ= ١٩٨٧م).

ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام، (ت:٥٤٢هـ=١١٤٧م)

٦- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ٨ج، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٤١٧هـ=١٩٩٧م.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر(ت:٢٧٩هـ=٨٩٢م).

٧- فتوح البلدان،١ج، تحقيق: رضوان محمد رضوان، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣.

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت: ٥٩٧هـ= ١٢٠٠م).

٨- المنتظم، بيروت، دار صادر، ط١، ١٣٥٨هـ.

ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي(ت: ٣٥٤هـ= ٩٦٥م)

٩- صحيح ابن حبان، ١٨ج، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، (١٤١٤ هـ= ١٩٩٣م).

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن محمد بن علي العسقلاني الشافعي(ت: ٨٥٢هـ=١٤٤٨م).

١٠- الإصابة في تمييز الصحابة، ٨ج، تحقيق: علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ط١، (١٤١٢هـ= ١٩٩٢م) .

ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف(ت:٤٦٩هـ= ١٠٧٦م)

١١- المقتبس من أنباء أهل الأندلس، (المكتبة الشاملة)

ابن الخطيب، لسن الدين محمد بن عبد الله التلمساني(ت:٧٧٦هـ= ١٣٧٤م).

١٢- الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤مجلدات، تحقيق: محمد عبد الله عنان، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ط١، (١٣٩٧هـ=١٩٧٧م).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي(ت: ٨٠٨هـ=١٤٠٦م)

١٣- العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار القلم، ط٥، ١٩٨٤م.

خليفة بن خياط، أبو عمر العصفري الليثي(ت:٢٤٠هـ= ٨٥٤م).

١٤- تاريخ خليفة بن خياط. ١ج، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، دمشق، بيروت، دار القلم، ط٢، ١٣٩٧هـ.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(ت:٧٤٨هـ= ١٣٤٧م).
١٥- العبر في خبر من غبر، ٥ج، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط١٩٨٤،٢م.

١٦- سير أعلام النبلاء،٢٣ج، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٩، ١٤١٣هـ.
١٧- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر(ت:٧٢١هـ = ١٣٢١م)

١٨- مختار الصحاح،١ج، تحقيق: محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
ابن سعيد، المغربي
١٩- المغرب، ٢ج، تحقيق: د. شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٥٥م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت:٣١٠هـ= ٩٢١ م).

٢٠- تاريخ الرسل والملوك، ٥ج، بيروت، دار الكتب العلمية.
ابن عبد الحكم، أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم (ت: ٢٥٧هـ =٨٧٠م).

٢١- سيرة عمر بن عبد العزيز، ١ج، تحقيق: أحمد عبيد، بيروت، عالم الكتب، ط٦، ١٤٠٤هـ.

أبو عبيد، القاسم بن سلام (٢٢٤هـ= ٨٤٧م).

٢٢- الأموال، ١ج، تحقيق: خليل محمد هراس، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٨هـ

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي(ت: ٥٧١هـ= ١١٧٥).

٢٣- تاريخ مدينة دمشق، ٧٠ج، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥م .

ابن الفرضي، الحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يونس الأزدي(ت: ٤٠٣هـ= ١٠١٢م).

٢٤- تاريخ العلماء بالأندلس، ٢ج، تحقيق: عزت العطار الحسيني، القاهرة، مطبعة المدني، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
ابن كثير، أبو الفداء، اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي(ت: ٧٧٤هـ= ١٣٧٢م).

٢٥- البداية والنهاية، ١٤ج، بيروت، مكتبة المعارف.

مسلم، أبو الحسين مسلم بن حجاج القشيري النيسابوري(ت: ٢٦١هـ= ٨٧٤م)

٢٦- صحيح مسلم، ٥ج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث.

المقري، أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت:١٠٤١هـ=١٦٣١م).

٢٧- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٨ج، تحقيق: د. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت:٧١١هـ= ١٣١١م).

٢٨- لسان العرب،١٥ج، بيروت، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ=١٩٩٤م..

الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري(١٢٧٩هـ=١٨٦٣م).

٢٩- الاستقصار لأخبار دول المغرب الأقصى، ٣ج، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

الهيثمي، علي بن أبي بكر(ت: ٧٠٨هـ= ١٤٠٥م).

٣٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد،١٠ج، القاهرة، بيروت، دار الريان للتراث.

ياقوت، ياقوت بن عبد الله الحموي(٦٢٦هـ= ١٢٢٩م).

٣١- معجم البلدان، ٥ج، بيروت، دار الفكر

ثالثاً: المراجع

١- حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٤٠٧هـ=١٩٨٧م.